زجاجة رماد ...

لراجي الراعي

فررت من الشمس الساطعة وأويت الى الضباب لأني رأيت فيه خيوطاً من ذلك النسيج الصوفي الهندي الذي حيكت به نفسي وقلت له : أيها الضباب انك تسدل ستارك على كل ما يهال له الناس ويكبرون ، كأنك لا تؤمن بها أو كأنك ترى فيها سفهاً وعبوراً لا يصح معهما أن تعرض على الناس ، وقلت له : زدني من حيرتك ووهمك واضطرابك أيها المفعم بالأسرار والأحلام ترضعها لبان الوحي والشعر ، المائل أمامي كأنك تقول لي : أنا منك أو أنت مني ، أيها الهازىء بالنور على عظمته وسلطانه كأنك الوهم الأكبر يهزأ بالحقيقة الكبرى ، يا ابن الشعراء والملهمين ويا رفيق التائهين أيها الحامل الملايين من الأشباح تطلقها على ليالي الانسانية وتملأ بها الأرواح ، أيها الضباب الجميل الذي كما رأيته قال لي : انك لم تستقرّ بعد على ما تروم ، انت على مفترق الطرق وفي نفسك من شكي ومن قلقي ، أيها الضباب ... اهل اسامي كأنك قلق النور وأرق الليل . أيها الذي يبدو مع الشمس لمّاً تتدفق به ثديّ الرؤى وينقلب بعد الغروب ظلمة وليلاً ، أيتها الخرزة البيضاء التي يسكبها الغرق في كؤوس القضاء ، أيها الضاحك على نقين الجهلاء الباكي على نفسه ، أيها الرماد المنثور الرعاش بذكرى لهيب القديم ، أيها النقاب الذي تستر به الطبيعة حياء جمالها ، أيها اللبن المكوثر الذي لا يسقى الاّ في وليمة الإلهام ، أيها العقد عقد الألم الذي ما بعده ألم يفرط في دموعه الزفرات البيض ، أيها القلب الذي يخلع حداداً في صدر الأثير . أيها الضباب زدني منك أو زد نفسك مني فنحن في غير الحيرة والخيال والوهم جفنان يرتعشان ولكن في ثغر القضاء والقدر شفتان متمردتان ، ويا أيها الضباب ابق لي صباحاً فقد سئمت الشمس والقمر والغسق والسحر وما هنالك من تهاويل الرسوم وأكاذيب الصور ... تلك هي الكلمات التي خاطبت بها الضباب وراء هذا الجوّ الساطع في غير هذا اليوم ولبثت أنتظر الجواب وكيف يجيبني

الضباب بالكلمة التي أريدها ، وهو لو كان يعرفها لما كان ضباباً . . انه ما يزال يتمخض بها ومن أجل ذلك هو حيث هو ، وحيث يرى من حقه أن يكون ...

لبثت ساعة أنتظر الكلمة النائمة المفقودة ، ثم مرت يد قاسية فمزقت بيننا فناب الضباب عني ! ... وفيما أنا مطرق على شاطىء البحر أفكر في تلك القوة الخفية التي لا همّ لها إلا قطع الصلات بين روحين يتهامسان وقلبين يتناجيان سمعت جلبة وضوضاء فقمت اليها فاذا آلاف من الخلق يتجادلون ويتخاصمون والبحر أمامهم والجبل وراءهم والسماء تنظر اليهم فقلت : ما لكم أيها الناس ، وما تلك التي تكأكأتم عليها وأطلقتم فيها الألسنة والعيون ؟ علامَ تختلفون وفيمَ تحتدمون ؟ فقالوا : أرأيت هذا البحر الذي تقف على شاطئه ، لقد قذف الينا أمس بزجاجة ملؤها رماد وأسرّت الينا احدى موجاته أنهُ رماد رجل عبقري عظيم ولد في الهند وقضى أيامهُ على ضفافه « الكانج » يعظ الناس ويهديهم الى الصراط المستقيم ويذكرهم الدنيا بحكمه وآياته فلما مات أحرق جرياً على العادة الهندية فانقلبت عبقريته لساناً من لهيب ما لبث أن استحال الى رماد جمعته الأمة في هذه الزجاجة وأودعتها البحر فما زالت الأمواج تتقاذفها حتى رمتها على هذا الشاطىء . ذلك ما أسرّت به الينا موجة البحر ، وها هي ذي الزجاجة اجتمعنا حولها حائرين لا ندري على أي مذبح نضعها ومن هو الذي يحق له أن يتملكها ويضع يده عليها ... ولكن من أنت أيها الناظر الينا بعينك الحائرة ؟ فقلت لهم : هي عين الرجل الذي تركتهُ منذ ساعة ، وقد فصلتني عنهُ يد لا ترحم وما حيرتكم الآن إلا نظرة من نظرات تلك العين التي تسع الدنيا وتملأها . . اني أراكم في ضباب هذه الزجاجة التي لا تعرفون أين تضعونها . . .

أيها زجاجة العبقرية ، زجاجة رمادها وقد هدأت ... فأنتم فاعلون وأين خطاؤكم يتكاثرون فترى ما يكون ؟ . . فشبت من الجمع امرأة تلهاء الجيد وقالت هذه الزجاجة لي : أنا الفلسفة ، ونهضت أخرى ساجية الطرف وصاحت : بل هي لي أنا الجمال ، وصاحت امرأة ثالثة أخذت بعنق الصبين : بل هي لي أنا الحكمة . ووثب الى الزجاجة فتىً وسيم الجبين ، صبيح الوجه ، مطهم

الخلق تقدح عيناه شرراً وصاح ملء فمه ورئتيه وروحه : هي لي هو لي : أنا الإلهام والشعر .. ثم نهض من مكانه فنبح صوت الحياة من كتابه سبعين صفحة وراح يجرّ نفسه جرّاً حتى توسط القوم وقال بلهجة رمادية : ان هذه الزجاجة لي : أنا الزهد .. وصاح أحد العميان : بل هي لي : أنا الألم .. وارتفع صوت من بعيد يقول : لا تعبوا هذا الرماد فهو رمادي : أنا النار .. وارتفع صوت آخر يقول : أنا البحر وهذه الزجاجة من جواهري . وصوت آخر : أنا الليل وفي هذا الرماد .. ثم عبق من أحلامي .. وسمعت صوتاً من العلاء يقول : اتركوا الزجاجة اتركوها فان فيها الف شمس تضيء بي : أنا المجرة . وصرت عليها نجمتان وقالتا : هذه الزجاجة لنا فلو لم يحدق البنا صاحبها طوال حياته لما حدقتم اليها الآن .. وأطلّ علينا التاريخ يجرّ وراءه مواكب الأجيال وتوسط الساحة وتربع صائحاً : ابعدوا ابعدوا فها أنا ذا أتيت وهذه الزجاجة لي فأنا وحدي أستطيع ان أعيد رمادها هيباً في الذكرى .. وجاء المفاخرون والبناؤون والرسامون والمنشدون يتدافعون ويدعون قائلين : لو لم نكن في لسان هذا الرجل وعينه وقلبه لما أستطاع ان يكون عبقرياً .... واشتدت الجلبة وعلا الصياح ونشبت بين الارض والسماء حول تلك الزجاجة معركة كادت تتحطم في غبرها والأيدي تتجاذبها ، كل يدّعي انها له ويريد أن يضع رماد العبقري على مذبحه .. فلم أطق صبراً وصحت بأولئك الناس . ويحكم قفوا قفوا يا عشاق الزمن الاخير . كان هذا العبقري بالأمس حيّاً فأنكرتموه وحسدتموه وقاتلتموه وأذقتموه مرّ العذاب وكدتم ترجونه من أجل صغيرته وهزأتم بحكمه وعقائده وآرائه .. كان ثمن قلم لسقوه وعرياناً فلم تكسوه وجريحاً فلم تواسوه فلما أطبق جفنيه تنافستم في حبه ورفعتموه الى قمة المجد .. كانت زجاجته رحيقاً فلم تشربوه فلما انقلبت رماداً تلتم بها على قبره .. لا — ليس هذا العبقري لكم وقدمات ، لانكم لم تكونوا له وهو حي فلا تمسوا هذا الرماد فلا حق لكم فيه ... ولا يزعمنّ احد منكم ان هذا العظيم مدين له ، فالعبقرية مستقلة حرة لا تنطوي تحت اي جناح مهما يكن طائره ... فهي لنفسها ولله وللخلود ...